المحاضرة العاشرة:

النّقد الواقعي

كثيرا ما يقع الخلطُ بين النّقد الاجتماعي والنّقد الواقعي؛ ذلك أنّ الأصل في اعتمادهما واحد وهو "الواقع"، إذ يُعتقد أنّ النّقد الاجتماعي رديف للواقعي، وكلّ منهما يرى في الأدب صورة عاكسة للواقع الذّي يحيط بالأديب، والفصل في هذا الوضع هو العودة لفترة ظهور كلّ منهما: فالنّقد الاجتماعي كما تمّ توضيحه يردّ تفسير الأدب إلى واقعه الخارجي. أمّا في ظلّ النّقد الواقعي، فيكون عمل الأديب ليس هو النّقل الحرفي للواقع كما هو، أو كما أشارت إليه الآراء المتعلّقة بالنّقد الاجتماعي ولكنّ الأمر فيه متعلّق بصورة وجدانية مختلفة تتكوّن بين المبدع وواقعه، فلا يصوّر الواقع انطلاقا من انفعالاته الحسية المباشرة، ولكن بوعي جمالي يُفترض توفّره في المبدع، فيقارب الأشياء في الواقع لا كما يراها، ولكن بأبعاد مختلفة عن الواقع تمثّل وعيًا ويقظة بالعالم، وإن كان مصدرها الواقع كما هو ببساطته.

فيتعالى المبدع عن التّصوير الفوتوغرافي للواقع كما عُرف عنه، ويصبح عمله أكثر وعيا من عرض أحداث مؤقتة على أرض الواقع، يكون تأثيرها متغيّرا بتغيّر الظروف، والمبدع هو الذّي ينصرف عن الرؤية السطحية ويتعالى عنها ليصوّر العالم صورة راسخة فنية جمالية لا يحكمها العقل ولكن يحكمها الخيال، بما هو هذا النّقل النّوعي للواقع كما هو، ويبطّنه من خلال دلالات متعالية، ويكون عمل النّاقد إذن ليس القراءة السطحية ولكن عملًا موازيا يُضاهي عمل الأديب في بعض الأحيان، لأنّ وظيفته هي الكشف عن هذا المبطّن في الكلام باستدعاء ذوقه الجمالي الذّي يقارب من خلاله الصّور الجماعية التي تنبئُ عن دلالات الأدب.

1/ ظهور الواقعية في أوروبا:

الواقعية مصطلح منسوب إلى "الواقع" الذّي يُمكن تقسيمه إلى نوعين:

1- **الواقع الحقيقي:** وهو الواقع المطابق لما هو موجود في العالم الخارجي.
2- **الواقع الفني:** وهو الذّي يبدعه الأدب والذّي يعتمد في تشكيله على الواقع الحقيقي، ويُعيد صياغته بأسلوب إبداعي.

- أسهمت بعض العوامل في ظهور الواقعية في أوروبا، أهمها:

✓ المناداة بضرورة عودة الأدب إلى الواقع لتصويره تصويرًا دقيقًا بعيدًا عن مغالاة الرومانسية في الهروب من الواقع.
✓ تطوّر العلوم والاكتشافات العلمية التي تنظر إلى الوجود نظرة علمية، بعيدًا عن التزييف والذاتية.

2/ أهم خصائص المذهب الواقعي في أوروبا:

✓ الأدب الواقعي أدب موضوعي.

- ✓ المذهب الواقعي في الأدب يعتمد على تصوير الأشياء بعيدًا عن التزييف.
- ✓ شخصيات الأدب الواقعي وموضوعاته، تعكس نماذج اجتماعية من الطبقتين الدنيا والوسطى، فهو يقدّم نماذج إنسانية بسيطة و مهمشة.

3/ مدارس الواقعية في الأدب:

أ/ الواقعية النقدية: وهي الواقعية الأولى التي عرفتها فرنسا في الأدب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولهذه الواقعية نظرة سوداوية للمجتمع، وهي تقوم على تصوير الواقع ونقده وكشف عيوبه، ثمّ رفضه مباشرة دون أن تقدّم حلولًا لمشاكل الفرد والمجتمع، ودون أن تقدّم بديلًا للواقع الذّي رفضته.

ويعتبر **بلزاك** (1799-1850) (Honoré De Balzac) أبرز أعلام الواقعية النقدية، من رواياته **"الملهاة البشرية"** "La comédie humaine"، التي صوّر فيها المجتمع الفرنسي ومعاناة الأفراد تصويرًا موضوعيا ساخرا من البرجوازية، ومعظِّمًا تمرّد العمّال والفلاحين في المجتمع.

ب/ الواقعية الطبيعية: وتعتبر امتدادًا للواقعية النقدية، ولكنها أكثر علمية وموضوعية منها، لتأثرها بالنظريات العلمية، وعلم الطب وعلم النّفس، وأبرز ما يميّزها إيمانُها الشديد والثابت بالعلم والتجريب والملاحظة. ويعتبر **إميل زولا (1840-1902)Emile Zola** رائد هذا الاتجاه في سلسلة رواياته **روغون ماكارRougon Macquart** ، وهو يرى أنّ الإنسان مسيَّرٌ في هذه الحياة وليس مخيَّرًا، وأبرز ما يُسيّره الوراثة والبيئة.

ج/الواقعة الاشتراكية: ظهرت في القرن العشرين في الاتحاد السوفيتي، بعد ثورة 1917، وهي تجسّد النظرة الواقعية للأدب، ويُعدّ الأديب الروسي **مكسيم غوركي** (1868-1936) Maxime Gorki أوّل من استعمل هذا المصطلح (**الواقعية الاشتراكية**) هي المنهج الأساسي الذي تتبنّاه الواقعية الاشتراكية لبناء مجتمع جديد تتجاوز فيه سلبياته، وتصوّر ما فيه من صراع وحركة تصويرًا حيا.

4/ النقد الواقعي عند العرب:

يُعدّ **"محمد مندور"** و **"حسين مروة"** أهمّ الشخصيات التي تبنت النقد الواقعي، انطلاقا من تقسيمهم للاشتراكية أول الأمر، وقد قدّم **"حسين مروة"** نماذج تطبيقية اتّبع فيها سبيل النقد الواقعي بما هو طريقة جديدة أغرت العالم العربي بما يتمتّع به من شقّ موضوعي واقعي وآخر جمالي فني.

فهو في هذا لا يؤمن بنجاعة النقد التأثري من جهة، و كذلك النّقد الذّي تغيب فيه ذاتية الناقد، فوظيفة النّقد في نظر **"حسين مروة"** منفصلة عن كلّ تعصب أو فكر قبلي.

- **ومجمل القول:**

يتطوّر القول بانتماءِ الأدب إلى الواقع ليصل إلى مرحلة يكون فيها قد وصل إلى أوجه، وذلك بتغيير النظرة البسيطة السطحية التي كانت تربط بين الأدب والواقع ربطًا بسيطا مباشرًا وفوتوغرافيا، إلى آخر أكثر تعقيدًا و دلالةً على الواقع، لا كما هو ولكن كيف يُمكن أن يكون، وهنا يصبح الحديث عن واقع مختلف يتشكّل من الفجوة التي يتركها الفراغ الذي يتوسط بين الواقع كما هو والحلم الذّي يراودُ الإنسان في احتماله.

وللحديث عن النّقد الواقعي استحضار للفلسفة الماركسية في الجمال وطرق البحث عن الجمالية انطلاقا من طرق المبطن والمُغَيَّبِ في كلام المبدع، على إثرها يتحوّل عمل النّاقد إلى عملٍ مقارب أو متجاوزٍ لعمل المبدع في ذاته.

د. وافية حملاوي